الحرب النفسية

في ضوء سورة الأنفال

الدكتور / أحمد بن صالح قطران
الأستاذ المساعد في قسم الدراسات الإسلامية بكلية التربية
جامعة صنعاء

الحرب النفسية في ضوء سورة الأنفال

د/احمد صالح قطران
كلية التربية – جامعة صنعاء

المقدمة

الحمد لله حمدا يليق بجلاله وعظيم سلطانه خلق الإنسان وعلمه البيان يعلم ما تخفي الصدور القائل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(٨)قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (١٠)الشمس، وأصلي وأسلم على من أرسله الله رحمة للعالمين القائل(نصرت بالرعب)[١].

وبعد:

فالحرب النفسية ذات أثر فعال في حسم المعارك لصالح المتمكن من إدارتها بشكل متقن ، وكانت العمود الفقري في مسيرة الجهاد الإسلامي من بداية ظهور الدعوة الإسلامية، وقد استخدمها الإسلام ضد خصومه استخداما رائعا بلغ بها الذروة من حيث الأخلاق العالية التي صاحبت استخدامها ،وكان لها أبلغ الأثر في بث الرعب في نفوس خصوم الإسلام في كل عصر من عصوره إلى يومنا هذا، والقرآن الكريم وهو المنبع الصافي للأحكام الشرعية في كل المجالات زخرت آياته بكثير من الصور التي أثرت على خصوم الإسلام نفسيا بمجرد سماعهم لها .

واليوم وأمتنا تعيش مرحلة من أحلك مراحلها الاقتصادية والعسكرية والسياسية _حيث أضحى دم المسلم أرخص الدماء وماله أرخص الأموال وأصبح الخصوم

(١)- رواه البخاري ٣/١٠٨٧ رقم ٢٨١٥، ومسلم ١/٣٧٢ رقم ٥٢٢ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

يتلذذون في إيذاء المسلمين وتوجيه الضربة تلو الضربة في كل مكان من العالم حيث هُزم المسلمون من داخلهم، واستطاع عدوهم أن ينال منهم نيلا.

لذلك نحن بحاجة ماسة إلى العودة إلى المنبع الصافي لمعرفة كيف أدار الإسلام معركته مع الخصوم، وسورة الأنفال_ وهى التقرير الميداني لمعركة بدر الكبرى_ ترسم منهجا واضحا للحرب النفسية، يجتهد الباحث في استجلاء بعض معالمه، وقد قسمه إلى قسمين خصص أحدهما لمفهوم الحرب النفسية ودورها، والثاني لصور الحرب النفسية في ضوء سورة الأنفال راجيا من المولى سبحانه أن يوفق أمتنا إلى كل خير، وأن يأخذ بأيدي أبنائها إلى مواطن العزة والكرامة والله أكبر والعزة لله ولرسوله والمؤمنين.

أولا : مفهوم الحرب النفسية ودورها.

أ- مفهوم الحرب النفسية .

تعرف الحرب النفسية بـ(الاستخدام المخطط للدعاية أو ما ينتمي إليها من الإجراءات الموجهة على الدولة المعادية أو المحايدة أو الصديقة بهدف التأثير على عواطف وأفكار وسلوك شعوب هذه الدول بما يحقق للدولة (المواجهة) أهدافها)[1]

(١)-محفوظ - محي الدين علي - مدخل إلى العقيدة والاستراتيجية - الناشر: دار الاعتصام القاهرة ط/٢ ص ١٤٧.

وقيل هي: (الاستخدام المدبر لفعاليات معينة معدة للتأثير على أراء وعواطف وسلوك مجموعة من البشر وقت الحرب أو الطوارئ، ويستهدف منها إضعاف معنوياتهم، وتغيير منهج تفكيرهم بشكل يحقق مصالح العدو في القضايا التي يجري الصراع من أجلها، وهي تشمل بمعناها الواسع استخدام علم النفس لخدمة الحرب بأساليب الدعاية، الإشاعة، المقاطعة الاقتصادية، المناورة السياسية مع ما يكملها من الأعمال العسكرية الرادعة)[١]، وقيل: (استخدام مخطط – من جانب دولة أو مجموعة من الدول في وقت الحرب أو في وقت السلام – لإجراءات إعلامية، بقصد التأثير في أراء وعواطف ومواقف وسلوك جماعات أجنبية معادية أو محايدة أو صديقة تساعد على تحقيق سياسة وأهداف الدولة أو الدول المستخدمة)، وقيل هي: (إجراءات تهدف إلى شل إرادة الخصم وتحطيم رغبته في القتال بإيصاله إلى وضع لا يرى فيه أي أمل للنصر)، وقيل أيضاً :(هي استخدام أية وسيلة بقصد التأثير على الروح المعنوية وعلى سلوك أية جماعة لغرض عسكري معين).[٢]

(١)-الزبيدي- كامل -علم النفس في الميزان العسكري، الناشر: الدار العربية للموسوعات ط/١ ١٩٨٨م ٧.

(٢)-د. أحمد نوفل- الحرب النفسية – الناشر: دار الفرقان عمان، الأردن ط/٣ ١٩٨٧م ٣٤،٣٥/١.

ومما سبق يستنتج الباحث:

أن الحرب النفسية هي: الأعمال الفكرية والثقافية التي تستهدف الروح المعنوية للخصم لإضعافها وتغيير وجهة العواطف إلى عكسها حتى لا يقوى الجيش وأنصاره على المواجهة فتكون النتيجة تحقق الأهداف المطلوبة من خلال هذه الوسيلة الفعالة، ويختلف هدف الحرب النفسية باختلاف المخاطب بها.

(فمع الدولة المعادية: يكون الهدف التأثير على عواطف وأفكار وسلوك شعوب هذه الدولة وجيوشها لتحطيم روحها المعنوية وإرادتها القتالية وتوجيهها نحو الهزيمة، ومع الدولة المحايدة: يكون الهدف التأثير على عواطف، وأفكار وسلوك شعوب هذه الدولة لتوجيهها نحو الانحياز للدولة المواجهة، أو التعاطف مع قضيتها، أو على الأقل البقاء في وضع الحياد ، ومنعها من الانحياز إلى الجانب الآخر، ومع الدولة الصديقة: التأثير على عواطف وأفكار وسلوك هذه الشعوب لتوجيهها نحو تدعيم أواصر الصداقة مع الدولة المواجهة ، ونحو المزيد من التعاون لتحقيق أهدافها)[١].

ب- دور ومهام الحرب النفسية.

الحرب النفسية سلاح فعال في المعارك، وهي أقوى تأثيرا من الحرب المادية ، وتنبع أهميتها_ من كونها أمضى سلاحاً_ تعلقها بما في النفس الإنسانية من ثبات وطمأنينة ووهن... الخ ،فالمعنويات المنهارة لا تستطيع الثبات وإن امتلكت أحدث الأسلحة، أو كانت أكثر عددا وعدة ممن يواجهها..،لذلك فهي أهم وسيلة تدعم وسائل الحرب

(١) الزبيدي مصدر سابق ٧.

الأخرى في استجلاب النجاح والنصر في المعارك؛ لأنها توفر الكثير من الخسائر في الرجال والعتاد والأموال؛ لأن السيطرة على النفس تعني السيطرة على المعركة ، ويؤيد هذا ما قاله قادة عسكريون في العصر الحديث.

يقول تشرشل[١]: (كثيراً ما غيرت الحرب النفسية وجه التاريخ)، ويقول ديغول[٢] (لكي تنتصر دولة ما في حرب فإن عليها أن تشن الحرب النفسية قبل أن تتحرك قواتها إلى أرض المعركة، وتظل هذه الحرب تساند هذه القوة حتى تنتهي من مهمتها) ويقول رومل[٣] (إن القائد الناجح هو الذي يسيطر على عقول أعدائه قبل أبدانهم) ويضيف الدكتور حامد زهران (وتعتبر الحرب النفسية أضمن سلاح تستخدمه الدول

(١)- ونستون تشرشل: أحد القادة البريطانيين، ولد عام ١٨٧٤م في مقاطعة مالبورو البريطانية، وكان من القادة المؤثرين في الحرب العالمية الثانية، تولى رئاسة الوزراء ووزارة الدفاع عام ١٩٤٠م وسقط حزبه بعد ذلك بسنة ثم عاد لرئاسة الوزراء عام ١٩٥١ واستقال من منصبه عام ١٩٥٥م ،كان سياسيا وأديبا. توفى١٩٦٥م.ينظر: المنجد في اللغة والأعلام ١٧٤.

(٢)- شارل ديغول : جنرال فرنسي ورجل دولة دعا إلى مقاومة الألمان ، ترأس الحكومة من عام ١٩٤٤ حتى ١٩٤٦م ورئيس الجمهورية الخامسة من عام ١٩٥٩ حتى عام ١٩٦٩م، قدم استقالته واعتزل العمل السياسي عندما هزم مشروعه في تعديل الدستور الفرنسي عام ١٩٦٩م وتفرغ لكتابة مذكراته توفي عام ١٩٧٠م، ينظر :المصدر نفسه ٢٥٤.

(٣)- أرفين رومل : مارشال ألماني قاد الحملة الألمانية على أفريقيا، وفشل في معركة العلمين التي دارت أحداثها في صحراء أفريقيا بين الألمان والإنجليز، شك هاتلر في إخلاصه فأمره بالانتحار عام ١٩٤٤م. ينظر: المصدر نفسه ٢٧١،

في الحرب الحديثة لأنها تقوم بالدور الفعال في قتل إرادة ومعنويات الخصم... والحرب النفسية من أهم موضوعات الساعة وهي أخطر أنواع الحروب)[١]

وتحقق الحرب النفسية هدفها في تحطيم روح العدو المعنوية وإرادته القتالية من خلال المهام التالية:

١- تشكيك العدو في سلامة وعدالة الهدف الذي يحارب من أجله.

٢- زعزعة ثقة العدو في قوته من حيث الرجال والعتاد والقادة، وزعزعة ثقته في إمكانية إحراز النصر ، وإقناعه بأن لا جدوى من شن الحرب أو الاستمرار في القتال.

٣- بث الفرقة والشقاق بين صفوف العدو وجماعاته.

٤- التفريق بين العدو وحلفائه، ودفعهم إلى التخلي عن نصرته.

٥- تحييد القوى الأخرى وحرمان العدو من محالفتها)[٢] .

ومن خلال ما سنعرضه من صور الحرب النفسية في سورة الأنفال كما تصورها الآيات(١٢-١٥-١٨-١٩-٣٦-٣٨-٤٣-٤٤-٥٧-٥٩-٦٠-٦٧) من السورة[٣] ندرك مدى تحقق هذه المهام ،وكيف وضعت السورة منهجاً عظيماً في الحرب النفسية أصبح نبراساً يسير على هديه المسلمون في حروبهم، حتى خرجت بعلم

(١)- د نوفل. احمد- مصدر سابق ١/ ٢٩-٣٠.

(٢)- محفوظ - محي الدين علي، مصدر سابق، ص١٤٨.

(٣)- موزعة على الفقرات كما سيرى القارئ.

من أهم العلوم العسكرية ذات التأثير في حسم المعارك،وهو علم النفس العسكري أو الحربي، فإذا أضيف لها بعض المفاهيم التي وردت في سور أخرى[1] ،سنجد علماً متكاملاً يدرس ،ويجلي تفاصيل النفس الإنسانية وما يؤثر عليها سلباً أو إيجاباً.

ج- الحرب النفسية وصدر الإسلام

مدخل:

عرف الإسلام هذا السلاح الفتاك من أول أيام ظهوره، فمن يقرأ السورالمكية يجد أن القرآن كان يسير باتجاهين.

الأول: الاتجاه الداخلي: وهو بناء العقيدة والتربية الروحية، والتأكيد على رفع المعنويات، حتى وصل بالصف الإسلامي إلى أعلى مراتب الثبات المعنوي.

والثاني: الاتجاه الخارجي: وهو تحطيم معنوية الخصم، إذ اتجه القرآن إلى تسفيه أحلام المشركين، والهجوم على معتقداتهم حتى أوصلهم إلى مرحلة الشك بل أوصل بعضهم إلى اليقين ببطلان تلك المعتقدات، ومن ثم أضعف معنوياتهم في الدفاع عنها، وإلى جانب ما كان يشنه من الهجوم المباشر على تلك المعتقدات كان يضرب الأمثلة المتتالية التي كانت تذكّر بمصير من يحملون معتقدات متشابهة لمعتقداتهم.[2]

---

(3)- صور الحرب النفسية مبثوثة في سور عدة في القران، كسورة البقرة، وسورة التوبة وسورة الفتح، وسورة محمد، وسورة المنافقين، وغيرها، واستقصاؤها يحتاج إلى بحث آخر وهو ما نعد به إن أنشأ الله في العمر.

(1) - فكان يذكر القصص التي تشير إلى هلاك الأمم الذين كذبوا بالرسل كقوم نوح، قال

ولما أنتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة ونزل الإذن بالقتال في قوله تعالى ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج/39)، استخدم الحرب النفسية أسلوبا ثابتا ودائما (كاستراتيجية) في كل المعارك، وكان القرآن يتزل ليضيف أو يعدل أو يؤيد ذلك الأسلوب (الاستراتيجية) المستخدم.

وفي المدينة المنورة تنوع الخصوم. ففي حين كانت قريش في مكة هي الخصم الوحيد أصبح الخصوم في المدينة ثلاثة أصناف:(مشركوا العرب بمن فيهم قريش، اليهود، المنافقون).

1) قريش ومن والاهم من مشركي العرب:

تعد قريش الخصم الأول الذي اصطدمت به الدعوة الإسلامية في أول أيام نزولها،وهذا الخصم كما قلنا شن عليه القران حرباً نفسية أوصلته إلى حالة الصفر فيما

تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (21) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (22) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (23) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (24) مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ (نوح/25)، وقوم عاد، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (58) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (59) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ (هود/60).

وغيرهما من الأمم .

يتعلق بالمعتقدات، فكل المعارك التي خاضتها قريش مع المسلمين ليست دفاعاً عن المعتقدات، بل إن المعتقدات كانت ثانوية[١].

فمعركة (بدر) مثلاً: كان دافع قريش اقتصاديا بحتا، وهو الدفاع عن القافلة أو حماية طرق التجارة[٢]، ومعلوم أن هذا الدافع كان تأثيره على الخاصة من قريش ـ وهم من يملك المال ـ فمعنويات هذا الفريق تنطلق من كونه يدافع عن ماله، بينما من لا مال له لا معنوية لديه فلماذا يقاتل ؟ .

لذلك كان جلُ قتلى المعركة من المشركين من علية القوم من الناحية الاقتصادية والسياسية.

---

(١)- والقرآن الكريم وصف أفعالهم تلك بالصد عن سبيل الله، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (النساء/٧٦) . وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال/٣٦)وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (الأنفال/٤٧)،وهو كذلك ، غير أننا نعني الأسباب المباشرة القريبة للمعارك ،والتي- -كانت مدار تعبئتهم المعنوية للجيش.

(٢)-ينظر: المبارك فوري -الشيخ صفي الدين- الرحيق المختوم- الناشر: دار القلم بيروت ط/١ عام ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

ومعركة (أحد) كان الهدف هو الثأر لقتلى (بدر)، وهذا يتعلق بجانب العصبية والخوف من العار ، وهو أمر لا علاقة له بالمعتقدات إطلاقاً، وكان قادة المشركين عند التعبئة المعنوية يركزون على الثأر لأولئك القتلى ،ويركزون إلى جانب ذلك علىالمهدد الاقتصادي (قطع طرق التجارة)، بينما المعتقدات والدفاع عنها كانت بالمرتبة الثانية، ولما ظهر جيش المشركين في (أحد) على المسلمين بدت مسألة المعتقدات فقال قائلهم (أعل هبل)[١] في حين الحال على العكس لدى المسلمين حيث المعنويات المتجددة ، والتي تجعل المعتقدات أولاً ،وما سواها تابعاً لها، وظلت التعبئة المعنوية للمسلمين تنطلق من العقيدة لا غير[٢].

٢) اليهود:

اليهود هم الخصم(الفكري والعقدي) للرسول -ﷺ- والمسلمين ولذلك ، فقد اختلفت مواجهتهم ، حتى أن معارك المسلمين مع اليهود تختلف اختلافا كبيراً عن معارك المسلمين مع قريش، لأن اليهود ينطلقون من (فكر وعقيدة)، وكانوا يرون لأنفسهم فضلاً على العرب ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا

(١)- رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ٣٧١/٧ رقم ٣٦٧٨٣، والهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٠٩ وقال: رواه أحمد وفيه عبد الرحمن بن أبي الزناد وقد وثق على ضعفه ، وينظر أيضا المبارك - فوري مصدر سابق ٢٥٣.

(٢)- الجبوري - نهاد شهاب -العمليات التعرضية والدفاعية عند المسلمين- الناشر دار الحرية بغداد ١٩٨٧م-٣٥.

جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة/٨٩)، ومع امتلاك اليهود للعقيدة ، فقد كانت معنوياتهم في الحضيض ، لدرجة أنهم لم يثبتوا ثبات قريش ، مع أنهم كانوا يملكون من العدة والعتاد ما لا تملكه قريش، بل مالا يملكه العرب مجتمعين، فقد غنم المسلمون من اليهود أكثر مما غنموا من مشركي العرب، وتعود تحطم الروح المعنوية لدى اليهود من وجهة نظرنا إلى أسباب أهمها:

١- معرفتهم من خلال كتبهم بصدق النبي -ﷺ- ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام/٢٠) فكون الخصم يحارب،وهو يعلم بصدق ما يدعيه خصمه، وكذب ما يحمله هو، فإن ذلك يعني اليقين بالهزيمة، وهو ما كان عليه اليهود.

٢- شهودهم ومعرفتهم لما دار بين المسلمين ومشركي العرب من المعارك، وما آلت إليه تلك المعارك، وهذا دمر معنوياتهم بشكل جعلهم يصلون إلى مرحلة اليقين بعدم القدرة على مواجهة المسلمين مما حدا بهم إلى تحزيب الأحزاب والتحالف مع الوثنيين بكل قبائلهم ضد المسلمين، كما حدث في غزوة الخندق بل وصل بهم الأمر حد قيامهم بتعبئة مشركي العرب، والشهادة بأن ما يعتقدونه من الوثنية أهدى مما جاء به محمد-ﷺ-، وقد صور القرآن هذا فقال : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا

هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ (النساء/٥١).

٣- الطبيعة التي جبلوا عليها من الجبن والذل، فقد وصفهم الله بذلك قال تعالى: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾ (البقرة/٦١)، وقال تعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (الحشر/١٤).

٣) المنافقون :

وهم الخصم الثالث لرسول الله وأصحابه، وهذا الخصم كانت الروح المعنوية لديه في أدنى مستوياتها، الأمر الذي جعلهم يلجاؤن إلى أسلوب الخيانة والتلصص والكذب والكيد والمخادعة، وهذا لا يلجأ له إلا من كان علي يقين أنه لا يستطيع المواجهة- لا أعني المواجهة العسكرية بل وحتى المواجهة الكلامية_ ولذا فقد أظهر المنافقون خلاف ما يبطنون ولكن القرآن فضحهم فقال: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (المنافقون/١)، ووصل بهم الحال إلى تشجيع غيرهم خفية على قتال النبي صلى الله عليه وسلم ، والوعد كذباً بنصرتهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا

لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ (الحشر/١٢-٢٤).

فهذه الروح المعنوية الخائرة لدى المنافقين ترجع إلى أسباب نذكر منها:

١- حضورهم بعض المعارك التي خاضها المسلمون مع المشركين واليهود، ذلك الحضور الذي رأوا فيه الموت المحقق، وشاهدوا شدة بأس المسلمين مع عدوهم في المعارك. مما جعلهم لا يفكرون مجرد التفكير بالمواجهة الكلامية فضلا عن المواجهة العسكرية.

٢- غياب المستند العقدي والفكري (الأيدلوجي) لهم ، فإذا كان اليهود يحملون عقيدة، والمشركون يحملون عقيدة ـرغم انحراف تلك العقائد ـ فالمنافقون لا يحملون أي عقيدة ، وكان منطلقهم هو الكبر والحقد والغل ضد الإسلام والمسلمين ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ (المنافقون/٨).

٣- قلة أعدادهم فهم- مقارنة بأعداد المشركين أو اليهود أو المسلمين- قلة قليلة لذلك كان لسان حالهم يقول : إذا كان اليهود والمشركون قد هُزموا أمام المسلمين فكيف بنا ونحن أقل عدداً وعدة. ؟

٤- تعرية القرآن لهم، حيث اكتفى الإسلام بمواجهتهم إعلامياً ، ولم يستخدم ضدهم أي إجراء مادي على الإطلاق، حتى حد القذف لم يقم على من خاض في

حادثة الإفك منهم ، مع إقامته على من خاض فيه من المسلمين[١]. واكتفى الرسول -ﷺ- بما كان يترل من القرآن لفضحهم في كل تحركاتهم، واستخدم ضدهم الحرب النفسية فقط ، إلى الحد الذي جعلهم يرتجفون من كل شيء وجعلهم يعيشون في قلق وتوتر دائم، وقد صور القرآن حالهم بقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ (المنافقون/٤).

(١) - المباركفوري- مصدر سابق ٣٠٥. كـ(مسطح، وحسان، وحمنة)

ثانيا: صور الحرب النفسية من سورة الأنفال

الحديث عن هزيمة الخصم لتدمير معنوياته قبل المعركة

١) صورة من واقع مشركي قريش:

تتمنى كل الجيوش في كل الدنيا قبل خوضها للمعارك أن يكون الخصم مضطرب المعنويات ضعيف التعبئة؛ لأن ذلك سيساعدها على الانتصار عليه وهزيمته، لذا تحرص تلك الجيوش على بث الإشاعات وإرسال المعلومات التي من شأنها تدمير معنويات الخصم، وتثبيط عزيمته، ومن أجل ذلك تنفق الأموال الكثيرة في مجال الحرب النفسية، وتتركز الجهود بشكل مكثف قبل الدخول في المعركة ، حتى وإن كان الجيش يضمن النصر إلاّ أنه يتجه إلى الحرب النفسية ليضمن ليس الانتصار فقط ، ولكن ليضمن إلى جانب ذلك سرعة الحسم(١)، وقد ركز القرآن على تدمير معنويات الخصوم ، وتحدث عن هزيمتهم عسكرياً بصيغة الجزم المستقبلي، قال تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (القمر/٤٥)، فهذه الآية نزلت بمكة، قال الطبري فهزم المشركون يوم بدر(٢)،وقال القرطبي: كان ذلك يوم بدر(٣) ، وسورة الأنفال اهتمت بهذا الأمر اهتماما بالغاً،

---

(١)- الجبوري - نهاد- مصدر سابق٣٦ -

(٢)- الطبري - الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن خالد أبوجعفر ت ٣١٠هـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن-الناشر دار الفكر بيروت - عام ١٤٠٥هـ ٢٧/ ١٠٨ .

(٣)- القرطبي - الإمام محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح أبو عبد الله، ت ٦٧١هـ الجامع لأحكام القرآن -تحقيق أحمد عبد العليم البردوني- الناشر دار الشعب القاهرة - ط/٢ عام ١٣٧٢هـ١٧/.١٤٥

فالحديث عن الهزيمة المسبقة للخصم بالشكل الجازم الذي استخدمه القرآن لـه وقـع السحر على الخصوم قبل الدخول في المعركة، بل وقبل التفكير في خوضها، إذ تنـهار معنوياته إلى درجة أنه يدرك الهلاك ، وكفى بهذا الشعور في تحطيم المعنويات.

والسيرة النبوية أوردت أمثلة في هذا المجال نذكر منها:

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا على نفر من قريش بالهلاك فهلكوا قـتلاً بأيدي المسلمين في(بدر)، ونذكر هنا جزءا من الحديث الذي رواه ابن مسعود، حيث قال: أن رسول الله ﷺ دعا على قريش فقال :(اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط) وذكـر السـابع ولم أحفظه فوالذي بعث محمدا ﷺ بالحق لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم بدر ثم سحبوا إلى القليب قليب بدر)[1] وهؤلاء الذين ذكروا كلهم قتلوا في (بدر) عدى أبي بن خلف إذ قتل في (أحد)، وله قصة أوردها المحدثون ، وهي: أن رسول الله ﷺ قد قال عنـه في مكة إني أقتله إن شاء الله ، وكان قد بلغ رسول الله ﷺ أن أبيا :حلـف ليقـتلن رسول الله ﷺ، فجاء يوم (أحد) عازما على إبرار قسمه بقتل النبي ﷺ ، فلمـا رآه النبي ﷺ انتزع حربة فرماه بها فسقط من على فرسه، وجره أصحابه وهو يخور خـوار

(١) - رواه البخاري ٩٤/١ رقم ٢٣٧،و مسلم ١٤١٨/٣ رقم ١٧٩٤، ينظر أيضا: صحيح مسلم بشرح النووي للإمام أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي . ت ٦٧٦هـ الناشـر: دار إحياء التراث العربي - بيروت عام ١٣٩٢هـ ط/٢ -١٥٣/١٢.

الثور فقالوا: ما بك إنه جرح هين ؟ فقال والله لو نظر إلىّ محمد لقتلني، وفي رواية أخرى والله لو تفل عليّ محمد لقتلني، ومات في الطريق إلى مكة...[١]

(١)- وهنا نسرد جزءا من الروية وهو ما يتعلق بأبي بن خلف (وأما أبي بن خلف ، فقال والله لأقتلن محمدا ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: بل أنا أقتله -إن شاء الله- قال: فانطلق رجل ممن سمع ذلك من النبي ﷺإلى أبي بن خلف فقيل إنه لما قيل لمحمد ﷺما قلت قال: بل أنا أقتله إن شاء الله فأفزعه ذلك وقال أنشدك بالله أسمعته يقول ذلك؟ قال: نعم فوقعت في نفسه، لأنهم لم يسمعوا رسول الله ﷺ يقول قولا إلا كان حقا ، فلما كان يوم أحد خرج أبي بن خلف مع المشركين ، فجعل يلتمس غفلة النبي ﷺ ليحمل عليه فيحول رجل من المسلمين بينه، وبين النبي ﷺ، فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ قال لأصحابه خلوا عنه فأخذ الحربة ، فجزله بها يقول رماه بها ، فيقع في ترقوته تحت تسبغة البيضة ، فوقع الدرع ، فلم يخرج منه كبير دم ، واحتقن الدم في جوفه ، فجعل يخور كما يخور الثور ، فأقبل أصحابه حتى احتملوه وهو يخور، وقالوا: ما هذا؟ فوالله ما بك إلا خدش، فقال: والله لو لم يصبني إلا بريقه لقتلني أليس قد قال: أنا أقتله -إن شاء الله-،والله لو كان الذي بي بأهل ذي المجاز لقتلهم.

قال: فما لبث إلا يوما أو نحو ذلك حتى مات، فأنزل الله فيه ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ (الفرقان/٢٧) ، رواه الإمام عبد الرزاق في المصنف ٥/ ٣٥٧ رقم ٩٧٣١ عن مقسم مولى بن عباس رضي الله عنهما، ورواه الحاكم في المستدرك ٢/ ٣٥٧ رقم ٣٢٦٣ عن سعيد بن المسيب عن أبيه ،وقال صحيح على شرط الشيخين، و ينظر أيضا: ابن القيم - الإمام محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبوعبد الله ت ٧٥١هـ - زاد المعاد في هدي خير العباد - تحقيق شعيب الأرناؤوط - عبد القادر الأرناؤوط - الناشر مؤسسة الرسالة مكتبة المنار الإسلامية - بيروت - الكويت ط/٤ عام١٤٠٧ . ١٩٨٦ - ٢٠٩/٣

٢) حتمية خسارة المال والهزيمة وعذاب الآخرة.

الآية، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾، تحدثت الآية عن ثلاث نتائج من نتائج إنفاق المشركين لأموالهم للصد عن سبيل الله الأولى: أنها تكون عليهم حسرة، والثانية: أنهم يغلبون، والثالثة: أنهم يحشرون إلى جهنم ، وهنا يبرز تساؤل لماذا قدم الحسرة على الغلب في السياق.؟ إذ المفترض أن تكون الحسرة نتيجة الغلب ؛ لأن المنفق عندما ينفق ماله لشيء ما، فإنه ينتظر النتيجة منه، فإذا كانت إيجابية فرح وانتشى، وإذا كانت سلبية تحسر على ما أنفق، وعلى هذا كان المتوقع أن يكون السياق فسينفقونها ثم يغلبون ثم تكون عليهم حسرة... الخ، فما الحكمة من تقديم الحسرة في السياق على الغلب.؟

أقول والله أعلم: إن المشركين بما جبلوا عليه من تحكم غريزة حب المال [1] المعنية بقوله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (الفجر/٢٠) على قلوبهم لا ينفقون إلاّ كرها على أنفسهم وعليه، فالمنفق لماله ، وهو بهذه النفسية الهلوعة ينفقه، ثم يتحسر عليه ابتداء، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ، فإن المشركين عندما يرون أموالهم وهي تتجه وتسير

(١) لأن حب المال غريزة إنسانية يستوي فيها المسلم وغير المسلم، والفارق هو تحكم المسلم بها وتحكمها بغير المسلم.

إلى الإتلاف المحقق في مواجهة الحق[١] يتحسرون عليها فكأنه يقول: إنهم ينفقون أموالهم مع تيقنهم من الخسارة ذلك يصيب أنفسهم بالحسرة ، كونهم يعلمون عدم الجدوى من الإنفاق، فذكر القرآن الحسرة ،ثم أردف قائلاً (ثم يغلبون)، فتصير الحسرة حسرتين: حسرة على إنفاق المال وحسرة من الغلب (الهزيمة).

والحسرة لاشك وضع نفسي تدميري، والقرآن بهذا التعبير يدمر معنويات جزء كبير من جيش الخصم ، وهذا الجزء هم المُمَوّلُون (بكسر الواو) وهؤلاء إن دمرت معنوياتهم وخارت عزائمهم أحجموا عن القتال، فإذا أحجم هذا الفريق عن القتال كان غيره أكثر إحجاماً، لأن الممول المفترض منطقياً أن يكون أكثر إقداماً لأنه إذا أحجم كان أكثر الناس خسارة في حالة الغلب، إذ أنه في حالة النصر سيرجع إليه ماله ،ومثله ، وربما أكثر، وفي حالة الهزيمة يخسر المال، فيكون متحسراً ومغلوبًا، أما غيره وهم المُمَوَلون (بفتح الواو) ، فإن إقدامهم يتوقف على إقدام الفريق الأول، فإذا أحجم كانوا أكثر إحجاماً ؛ لأنهم أقل خسارة من غيرهم فهم في حالة النصر سيأخذون مالاً

(١) قال الطبري :(فسينفقون أموالهم في ذلك ثم تكون نفقتهم تلك عليهم حسرة يقول: تصير ندامة عليهم لأن أموالهم تذهب ، ولا يظفرون بما يأملون، ويطمعون فيه من إطفاء نور الله وإعلاء كلمة الكفر على كلمة الله ؛لأن الله معلي كلمته وجاعل كلمة الكفر السفلى، ثم يغلبهم المؤمنون، ويحشر الله الذين كفروا به، وبرسوله إلى جهنم ، فيعذبون فيها، فأعظم بها حسرة وندامة لمن عاش منهم ومن هلك أما الحي ،فذهب ماله باطلا دون درك نفع ورجع مغلوبا مقهورا محزونا مسلوبا). تفسير الطبري ٩ / ٢٤٤

دون أن ينفقوا شيئاً، وقد يتساوون مع من أنفق في الأنصبة، وفي حالة الهزيمة -إذا لم يقتلوا أو يجرحوا أو يؤسروا- لم يخسروا شيئاً فهذا _والله أعلم_ هو سر تقديم الحسرة في السياق على الغلب، فالحسرة الأولى للفريق الأول الممول على ما أنفق ، ثم الحسرة الثانية بسبب الهزيمة للجميع أي للفريقين ، و مصيرهم جميعاً إلى جهنم.

إذاً ، فهذه الآية تتحدث عن خبايا النفوس المشركة التي تنفق المال للصد عن سبيل الله ، وهي وإن كانت تنفق المال لذلك الهدف ، فهي تشعر في مكنونها بأنها تسير بأموالها إلى التلف، وهذا الشعور نجح الإسلام في غرسه في نفوس أعدائه على مدار التاريخ.

٣) الترغيب والترهيب .

الآية، ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾، هذا أسلوب القرآن البديع: فإنه عندما يتحدث عن مصير المعاندين والمحاربين لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم يذكر ذلك المصير على وجه الحسم والجزم ،ولكن قبل الحديث عن المصير المحتوم يفتح لهم باباً واسعاً للانتظام في صف عباد الله دون محاسبتهم عما اقترفوا بحق المسلمين عندما كانوا كفارا، ويعتبر هذا الأمر أعظم عامل في إطماع النفوس في المجيء إلى الإسلام والدخول فيه ،إذ يجد العدو نفسه أمام عفو مطلق لا يتحمل معه أي تبعة لأي شئ مضى قبل إسلامه ، ولو لم يكن الأمر كذلك لما أسلم من أسلم ممن حارب الإسلام في (بدر)، (وأحد) ،وغيرهما... ، والإسلام أعظم

نظام عرفته البشرية، فقد حورب حرباً شعواء ، وقُتل كثيرون من خيرة أتباعه على أيدي رجال أسلموا ، فيما بعد وحسن إسلامهم وصاروا سيوفاً من سيوف المسلمين، فلو كان من شارك في معركة أحد في صف المشركين -كخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص رضي الله عنهما- يعلم أنه إذا جاء إلى النبيﷺ مسلما سيعاقبه - ولو بعقوبة بسيطة - ما أتى ولكنه علم أن الإسلام يجب ما قبله ،وهذا الأمر له أثره الكبير في تشجيع من كان في صف المشركين أن يأتي مسلما، (إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ) فهذه الآية تؤثر في معنويات الخصم من عدة جوانب منها:

أنها تفتح الباب للعقلاء من الخصوم بالانضمام إلى صف المسلمين، لمعرفتهم أنهم لن يلقوا إلاَّ الحفاوة والترحاب، والفرح بإسلامهم، وإن كانوا قد حاربوا المسلمين من قبل، وقتلوا عدداً من المسلمين في المعارك فإنه (يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ).

أن هذا الأمر أصاب قادة العدو بنوع من الاهتزاز في التصرفات، واتخاذ القرار،إذ أدرك أولئك القادة أن أفراد معسكرهم إذا أحسوا بالظلم أو المضايقة سيتجهون إلى المعسكر الإسلامي الذي سيستقبلهم بالحفاوة والترحاب ، فيضطر أولئك القادة إلى كثير من المجاملات الزائدة ويتجنبون الاحتكاك المباشر مع الجنود خوفاً عليهم من الفرار، وهذا الأمر له أثره النفسي إذ يصيب القادة بفقدان الثقة بالجنود وهي أهم نتيجة تتوخاها الحرب النفسية.

ومن ذالك أن معنويات جموع الخصم تهتز عندما يتسرب الأفراد باتجاه المعسكر الإسلامي، فيحدث فيه التزايد بينما يحدث التناقص في معسكر المشركين، ولهذا هزمت قريش معنوياً أكثر من هزيمتها مادياً ،فعندما رأت أهم قادتها وقد أسلموا وانضموا إلى المعسكر الإسلامي، وأصبحوا قادة في جيش الإسلام خارت عزيمتها، ولم يجد (أبو سفيان)عبارة يقولها لقريش يوم فتح مكة سوى:(يا قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به)[١].

يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى: (قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا) أي: عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد، ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة (يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ) أي: من كفرهم وذنوبهم وخطاياهم. كما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: (الإسلام يجب ما قبله والتوبة تجب ما كان قبلها)[٢]، وقوله تعالى: (وَإِنْ يَعُودُوا) أي: يستمروا على ما هم فيه (فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ) أي فقد مضت سنتنا في الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم أنا نعاجلهم بالعذاب والعقوبة قال مجاهد[٣]: في

(١)- رواه الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٦٧ من حديث طويل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقال رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه مسلم ١/١١٢ رقم ١٢١.

(٣)- مجاهد : الإمام شيخ القراء والمفسرين مجاهد بن جبر وقيل بن جبير أبو الحجاج المكي الأسود مولى عبدالله بن السائب، تابعي جليل، سمع من بن عباس وبن عمر، وعن كثير من الصحابة قال عن نفسه عرضت القران على بن عباس ثلاثين مرة، مات رحمه الله سنة ١٠٣ هـ، ينظر ترجمته في : التاريخ الكبير للبخاري ٧/ ٤١١ ،والكنى والأسماء

قوله (فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ) أي في قريش يوم (بدر) وغيرها من الأمم)[١] وقال الإمام الشوكاني : (وفي هذه الآية دليل على أن الإسلام يجب ما قبله _وإن يعودوا_ إلى القتال والعداوة أو إلى الكفر الذي هم عليه ويكون العود بمعنى الاستمرار_فقد مضت سنة الأولين _هذه العبارة مشتملة على الوعيد، والتهديد والتمثيل بمن هلك من الأمم في سالف الدهر بعذاب، أي: قد مضت سنة الله ، فيمن فعل مثل هؤلاء من الأولين من الأمم أن يصيبه بعذاب فليتوقعوا مثل ذلك)[٢].

أقول هذه الآية تسير باتجاهين أحدهما: التعبئة المعنوية للمسلمين ، والآخر تحطيم معنويات الخصوم وسد كل الطرق أمامهم، إلا طريق الإسلام، أي: الدخول فيه، وعجز الآية يتحدث عن المصير المحتوم بصيغة التحقيق على اعتبار أنها سنة ماضية، أي: قانون سار إلى الأبد ، وهي تحمل حقيقة أنهم لن يجنوا خيراً من حربهم للإسلام ،فإن من حارب الحق المنزل من الله سبحانه لم يجن خيراً وكان مصيره الهزيمة والعذاب، وهذه الحقيقة لها من التأثير على النفس مالها، إذ أن من يدخل المعركة، وهو متوقعٌ للهزيمة-

---

لمسلم ١/ ٢٦٢، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٤/٤٤٩.

(١)-ابن كثير - الإمام أبي الفداء اسما عيل القرشي الدمشقي ت٧٧٤هـ - تفسير القرآن العظيم - المشهور بتفسير ابن كثير - الناشر دار المعرفة بيروت لبنان- ط/٢ -١٩٨٩ م ٢/ ٣٢٠، ٣٢١ .

(٢) - الشوكاني- محمد بن علي -. ت ١٢٥٠هـ - فتح القدير الجامع بين فني الدراية والرواية في علم التفسير- الناشر دار الفكر بيروت عام١٩٨٣م - ٢/ ٣٠٨.

ولو بنسبة بسيطة- فإن معنوياته لاشك في هبوط، إذ تظل تلك النسبة في ازدياد مستمر حتى تنتهي إلى الهزيمة الفعلية، فكأن القرآن يقول: أيها المعاندون لن تكونوا أقوى من فرعون، والنمرود وغيرهما ممن حارب الله ورسله على مر العصور حيث هزمهم الله ونصر رسله، وهي حقيقة أكدها الله سبحانه بقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (المجادلة/٢١).

٤) التحذير من مغبة التمادي في حرب الله.

الآية ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ ٥٩).

تطلق الآية تحذيراً وتهديداً للمحاربين للإسلام الذين يريدون إعادة الكرة لحرب المسلمين ، وأولئك الذين تعنيهم الآية هم الذين أفلتوا من معركة سابقة، إما لهربهم، أو لعدم حضورهم ، فتولد لديهم التحدي، لمواجهة المسلمين، فهذه الآية تقول لهم : إن كنتم قد أفلتم من المعركة السابقة ، فإن ذلك لا يعني إفلاتكم من البطش، أن الله عاجزٌ عن الإحاطة بكم، كلاَّ فإنكم لا تعجزونه أبدا ،و الآية وإن كانت تعني من لم يحضر معركة (بدر)، إلاّ أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. كما هو معروف.

قال ابن كثير: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ سبقوا أي فاتونا ، فلا نقدر عليهم، بل هم تحت قهر قدرتنا، وفي قبضة مشيئتنا فلا يعجزوننا وهي كقوله ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (العنكبوت/٤) أي يظنون)[١].

وقال الإمام الشوكاني: (أي أنهم لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم... وقيل المراد بهذه الآية من أفلت من وقعة (بدر) من المشركين، والمعنى: إنهم

(١) – ابن كثير– مصدر سابق ٢/ ٣٣٤.

وإن أفلتوا من هذه الوقعة ونجوا ، فإنهم لا يعجزون، بل هم واقعون في عذاب الله في الدنيا أو في الآخرة ،وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ[١] عن ابن عباس –رضي الله عنه– في قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ قال: (لا يفوتونا)[٢].

وقال عبد المنعم تغلب: (ولا يظنن من أمهل من الكفار فلم يعاجل ببطش الله أنه أفلت وفات من أن ينكل به، لأنه لن يعجز الله أن ينتقم منه، فهو سبحانه القادر الذي لا يعجزه شيئاً في الأرض ولا في السماء)[٣].

أقول: تضطرب حسابات الجيوش ، وتهتز معنويات أفرادها بمجرد أن تسمع أن الخصم الذي تواجهه مسنود معنوياً (وهو التأثير الإعلامي والموقف السياسي) ممن هو أقوى منهما– أي من المقابلين _ بفتح اللام–، فكيف إذا هدد أنه يرصد تحركاتها، وأنه ليس غافلاً، بل وسيعاقب تلك الجيوش على اعتدائها، أو مواجهتها لحليفه .

---

(١) – أبو الشيخ: حافظ أصبهان ومسند زمانه الإمام أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري صاحب المصنفات السائرة ويعرف بابي الشيخ، ولد سنة أربع وسبعين ومائتين صنف التفسير والكتب الكثير في الأحكام وغير ها، توفي سنة ٣٦٠ هـ، ينظر: تذكرة الحفاظ ٣/ ٩٤٥.

(٢) – الشوكاني – مصدر سابق٢/ ٣٢٠، ٣٢١.

(٣) – تغلب– عبد المنعم احمد– فتح الرحمن في تفسير القرآن – الناشر دار السلام ط/ ١– ١٩٩٥م–٣/١٢٤٣،١٢٤٤

لا شك أن معنويات تلك الجيوش ستهبط إلى الصفر، بل وقد تهزم أمام من هو أقل منها عدداً وعدة.

فالجيش العربي مثلا في حرب ١٩٦٧م كان أكثر عدداً وعدة، وأكثر تدريباً، بل كان أضعاف الجيش (الصهيوني) ، ومع ذلك هزم، وفي تصورالباحث أن تلك الهزيمة ترجع إلى عدة أسباب أهمها السبب المعنوي: وتأثر الجانب المعنوي للجيش العربي آنذاك يظهر في صورتين :

الصورة الأولى : استطاع العدو بوسائله المختلفة أن يثبت لدى الجيش العربي أنه إنما يحارب (أمريكا) وليس (الكيان الصهيوني) ، فتحطمت المعنويات ؛ لأنها كانت مبنية على القوة المادية فقط، والجانب المعنوي لديه هو حب التراب والحرب من أجل التراب يختلف عن الحرب من أجل العقيدة (طلب الاستشهاد في سبيل إعلاء كلمة الله) من حيث الثبات ، فالجيش العربي آنذاك تساوى مع الجيش الصهيوني في التشبث بالحياة ، واختلفا في الحشد الإعلامي والسند المعنوي، فكان الجيش العربي يعتقد أنه يواجه أمريكا وهي أقوى مادياً_ وهذا واقع_. وما دامت تساند إسرائيل فهي أقوى مادياً، وهذا من أهم الأسباب التي أدت إلى الهزيمة وسرت في الجيوش العربية مقولة: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ (البقرة/٢٤٩) أي لا طاقة لنا بأمريكا اليوم.

الصورة الثانية أن الجيوش العربية عندما غاب عنها الهدف الأسمى الذي من أجله تحارب انهزمت معنويا، إذ ماذا يعني الدفاع عن التراب ، فالتراب لن يكون أغلى من

الروح، لكن الجندي الذي يدخل المعركة وهو يعتقد أنه يدافع عن ما هو أغلى من التراب[١] ومن النفس، وهو الدين، ويدخل إلى أرض المعركة بنفسية المتيقن بالموت والإستشهاد معتبرا أن الحياة التي سينقلب إليها خير من هذه الحياة تلك، والله هي أعلى المعنويات، وهي أقوى من الماديات فالمسلمون الأوائل كانوا أقل عددا وعدة لكنهم كانوا أعلى معنويات من خصومهم فكان لهم النصر والمعارك في التاريخ أعظم الشواهد[٢].

والآية ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ التي نحن بصدد الحديث عنها تقول: أيها الكفار لا تظنون أنكم بعيدون عن بطش الله بل إنه ينظر إليكم ، ويرصد تحركاتكم، وسيعاقبكم على محاربتكم لأوليائه، ومما لا شك فيه أن هذا الأمرعندما يصل إلى الخصم، فإنه سيدمر معنوياته بشكل كبير. إذ كيف تكون معنويات جيش يحارب خصماً يعلم علماً يقينياً أنه مسنود من القوي العزيز الذي لا يغلبه غالب؟ لا شك أنها ستكون في الصفر.

---

(١)- لا يعني هذا الدعوة إلى التفريط بالأرض ، وإنما القصد سيادة العقيدة وحب الأرض لا لذاتها وإنما لكونها مكان تطبيق الشريعة.

(٢)- ينظر الجبوري: نهاد- مصدر سابق ٢٩.

الخلاصـــــــة.

إن الحرب النفسية في صدر الإسلام تدرجت بشكل عظيم، وسارت وفــق إدراك لنفسيات من واجهتهم بمختلف أصنافهم الأمر الذي أسس منهجا باهرا في الدراسات النفسية، وتوظيفها في مجال الحروب بتفوق منقطع النظير.

مما جعل الجيوش الإسلامية_ رغم قلة العدد والعدة_ أكثر تفوقا مــن خصــومها وسار المسلمون من نصر إلى نصر ومن فتح إلى فتح ، حتى وصلت دولة الإســلام إلى الصين شرقاً ، وإلى فرنسا غرباً ، وتأسست أعظم حضارة نقلت العالم نقلــة نوعيــة ، وحولت مجرى التاريخ البشري ، وفتحت أفاق العلوم المختلفة.

الخاتمـــــة

من خلال التنقل في ظلال آيات سورة الأنفال ندرك إنها تعرض صورا قوية مـــن صور الحرب النفسية، وهي وإن كانت تعرض لتفاصيل من معركة (بدر) الكـــبرى إلا أنها أسست لمنهج بديع قوي في الحرب النفسية، سيظل نبراسا تستلهمه العقول وتسير وفق خطاه لتحقيق النصر، ومن خلال عرضنا لتلك الصور؛ نتبين أن سورة الأنفـــال وضعت منهجا لاستخدام الحرب النفسية قبل المعركة، وأثناء المعركة، وبعد المعركـــة، وهو المنهج المتكامل في المواجهة بين القوى العسكرية في عصرنا الحاضر، فان القـــوى المتحاربة في الوقت الحاضر تشن حربا نفسية على بعضها قبل المعركة، وتشـــن حربـــا نفسية على بعضها مصاحبة للمعركة، وتشن حربا نفسية على بعضها بعـــد المعركـــة، والفارق بين الحرب النفسية التي تشنها القوى المادية على بعضـــها، والحـــرب الـــتي وضعتها سورة الأنفال: يتجلى في أن الحرب النفسية اليوم تعتمد الإشـــاعة الكاذبـــة وتعتمد كل الوسائل المشروعة، وغير المشروعة ولا تحكمها الأخلاق ، في حين الحرب النفسية في ضوء سورة الأنفال لم تستخدم الإشاعة الكاذبة ، وإنما استخدمت الحقـــائق المنطقية التي يتفق عليها الكل حتى الخصوم ، واستبدلت الإشاعة بأســـلوب يســـمى التورية،ولم تغفل الأخلاق، وإن كان الإسلام يجيز الكـــذب في الحـــرب، فقـــد قـــال ﷺ:(الحرب خدعة)[1]

(١)- رواه البخاري ٣/ ١١٠٢ رقم ٢٨٦٥، ومسلم ٣/ ١٣٦٢ رقم ١٧٤٠ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

والحرب النفسية التي اعتمدها السورة تستهدف كل شـــرائح الخصـــم، القـــادة والجنود، القريب والبعيد ، الممول والمموَل، من دخل المعركة ومن لم يدخلها، وهـــي بهذا المنهج تشكل سياجا قويا على الأمة المسلمة تصطدم به كل النفوس التي ترغب في النيل من الإسلام وأهله.

المصـــــادر

١- **الأنصاري: عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان أبو محمـــد** ت ٣٦٩هـــ - طبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها- تحقيـــق عبدالغفورعبـــدالحق حســـين البلوشي – الناشر: مؤسسة الرسالة بيروت - ط/٢ عام ١٤١٢هـــ - ١٩٩٢م –

٢- **ابن أبي شيبة: أبو بكر عبد الله بن محمد الكـــوفي**-ت٢٣٥هـــ المصـــنف في الأحاديث والآثار- تحقيق: كمال يوسف الحوت الناشر: مكتبة الرشد – الرياض- ط /١ عام ١٤٠٩هـــ.

٣- **الشيباني : احمد بن حنبل: أبو عبد الله** ت ٢٤١هـــ- المسند الناشر: مؤسسة قرطبة- مصر.

٤- **البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي** ت ٢٥٦هـــ الجامع الصـــحيح المختصر- تحقيق: د. مصطفى ديب البغا- الناشر: دار ابـــن كـــثير ، اليمامـــة بيروت - ط/٣عام ١٤٠٧هـــ - ١٩٨٧م.

٥- **التاريخ الكبير- تحقيق: السيد هاشم النـــدوي- الناشـــر: دار الفكـــر بيروت.**

٦- **النيسابوري: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري** - صـــحيح مســـلم - تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي- الناشر دار إحياء التراث العربي بيروت .

٧- الكنى والأسماء - تحقيق: عبد الرحيم محمد أحمد القشقري - الناشـــر: الجامعـــة الإسلامية المدينة المنورة- ط/١ ١٤٠٤هـــ

٨- الهيثمي : علي بن أبي بكر ت ٨٠٧ هـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد- الناشر: دار الريان للتراث ،دار الكتاب العربي- القاهرة بيروت عام ١٤٠٧هـ .

٩- ابن خلكان: أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ت ٦٠٨هـ - وفيات الأعيان وأنباء الزمان – تحقيق: د.إحسان عباس - الناشر: دار الثقافة - بيروت عام ١٩٦٨م.

١٠- السيوطي : عبد الرحمن بن أبي بكرت ٩١١هـ - طبقات المفسرين- تحقيق : علي محمد عمر-الناشر: مكتبة وهبة القاهرة- ط/١ عام ١٣٩٦هـ .

١١- الشوكاني: محمد بن علي ت١٢٥٠هـ - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير- الناشر: دار الفكر بيروت عام١٩٨٣م.

١٢- الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز أبو عبد الله –ت ٧٤٨ هـ - سير أعلام النبلاء- تحقيق: شعيب الأرناؤوط، محمد نعيم العرقسوسي- الناشر: مؤسسة الرسالة- بيروت- ط/٩ عام ١٤١٣هـ.

١٣- القيسراني: محمد بن طاهر ت ٥٠٧هـ - تذكرة الحفاظ (أطراف أحاديث كتاب المجروحين لابن حبان)-تحقيق: حمدي عبد المجيد إسماعيل السلفي- الناشر: دار الصميعي الرياض –ط/١ ١٤١٥ هـ.

١٤- ابن كثير: إسماعيل بن عمر القرشي أبو الفداء ت ٧٧٤هـ تفسير القرآن العظيم – الناشر: دار المعرفة بيروت لبنان- ط/٢ ١٩٨٩ م .

١٥- البداية والنهاية- الناشر: مكتبة المعارف – بيروت.

١٦- **الصنعاني: أبو بكر عبد الرزاق بن همام** ت ١٢٦هـ - المصنف تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي- الناشر: المكتب الإسلامي بيروت- ط/٢عام ١٤٠٣ هـ.

١٧- **محفوظ: محي الدين علي** - مدخل إلى العقيدة والاستراتيجية -الناشر: دار الاعتصام القاهرة- ط/٢.

١٨- **الزبيدي: كامل**- علم النفس في الميزان العسكري- الناشر: الدار العربية للموسوعات- ط/١ عام ١٩٨٨م.

١٩- **نوفل: أحمد** - الحرب النفسية – الناشر: دار الفرقان عمان الأردن - ط/٣ ١٩٨٧م.

٢٠- **الجبوري: نهاد شهاب** - العمليات التعرضية والدفاعية عند المسلمين- الناشر: دار الحرية- بغداد بدون رقم طباعة ولا تاريخ.

٢١- **الطبري: الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن خالد أبو جعفر** ت ٣١٠ هـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن- الناشر: دار الفكر بيروت عام ١٤٠٥هـ.

٢٢- تاريخ الأمم والملوك تحقيق: كمال يوسف الحوت الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت- ط/ ١ عام ١٤٠٧هـ.

٢٣- **القرطبي : محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح أبو عبد الله** ت ٦٧١هـ - الجامع لأحكام القرآن –تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني – الناشر: دار الشعب القاهرة - ط/٢عام ١٣٧٢ هـ.

٢٤- **النووي: أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري** ت ٦٧٦هـ صحيح مسلم بشرح النووي- الناشر: دار إحياء التراث العربي بيروت - ط/٢ عام ١٣٩٢هـ .

٢٥- **ابن القيم: للإمام محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبوعبد الله** ت ٧٥١هـ - زاد المعاد في هدي خير العباد – تحقيق: شعيب الأرناؤوط - عبد القادر الأرناؤوط – الناشر: مؤسسة الرسالة مكتبة المنار الإسلامية- بيروت – الكويت - ط/٤ عام١٤٠٧.

٢٦- **ابن منظور: محمد بن مكرم الأفريقي المصري** ت ٧١١هـ- لسان العرب- الناشر: دار صادر بيروت - ط/١.

٢٧- **الحاكم: محمد بن عبد الله أبو عبد الله النيسابوري** - ت ٤٠٥هـ المستدرك على الصحيحين - تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - ط/١- عام هـ١٤١١ ١٩٩٠م.

٢٨- **خلاف**: المرحوم الشيخ عبد الوهاب - كان أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق جامعة القاهرة - علم أصول الفقه- الناشر دار القلم الكويت- ط/٢٠ عام ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

٢٩- **ابن هشام**: عبد الملك الحميري المعا فري أبو محمد ت ٢١٣هـ -السيرة النبوية- تحقيق: طه عبدالرؤف سعيد - الناشر: دار الجيل بيروت لبنان ط/١ ١٤١١هـ.

٣٠- **قطب: سيد ت: ١٩٦٦م- في ظلال القرآن - الناشر: دار الشروق بيروت لبنان – ط/١١عام ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.**

٣١- **شاكر: محمود**- التاريخ الإسلامي- الناشر: المكتب الإسلامي بيروت- ط/١ ١٩٨٥م.

٣٢- **الزمخشري : أبي القاسم جار الله محمود عمر الخوارزمي** ت ٥٣٨هـ - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل- الناشر: دار المعرفة بيروت لبنان- بدون رقم ولا تاريخ طبعة.

٣٣- **المبارك فوري: الشيخ صفي الرحمن**- الرحيق المختوم – الناشر: دار القلم بيروت – ط/١عام ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

٣٤- **مجموعة من الباحثين**: المنجد في اللغة والأعلام – الناشر: دار المشرق العربي بيروت –ط/٢٨ عام ١٩٨٦م.